امتداد الإسلام والعروبة إلى وادى النيل الأوسط

« مملكة علوة »

مملكة علوة هي إحدى الممالك النوبية الثلاث، التي قامت فى شمال السودان ووسطه على أنقاض مملكة مروى التي أخذت فى الانهيار منذ منتصف القرن الرابع الميلادى ذلك أن غزو مملكة أكسوم الحبشية لجهات حوض النيل الأوسط بقيادة الملك عيزانا أدى وقتذاك إلى انقسام مملكة مروى إلى إمارات صغيرة تحت حكم رؤساء وطنيين. وظلت هذه المملكة مدة قرنين على الأفل، ميسرحا للاضطرابات والحروب الداخلية، حتي استطاع بعض أمرائها أن يتوسع على حساب البعض الآخر، فنشأت على أثر ذلك ثلاث ممالك مستقلة بشئونها، هى التى استقبلت الدعوة المسيحية رسميا، فى منتصف القرن السادس الميلادى. أما هذه الممالك النوبية المسيحية ـ حسبما ورد فى المراجع السريانية[1] ـ فأولاها مملكة النوباديين Nobadae أى نوباديا Nobadia وعاصمتها بخراش « فرس »، وتمتد من مدينة أسوان إلى قرية عكاشة، جنوبى الشلال الثانى. وثانيتها مملكة الماكوريين Makoritae، أى مقرة، وعاصمتها دنقلة، وتمتد من قرية عكاشة إلى بلدة الأبواب (كبدشية الحالية). وثالثتها مملكة أطلق اليونانيون على سكانها اسم Alodiae وهى علوة، تمتد جنوبى مقرة حتى بلدة القطينة على النيل الأبيض، وعاصمتها سوبا. وتشمل هذه المملكة بعض جهات الأتبرا والنيل الأزرق شرقا حتى حدود الحبشة، وبعض جهات كردفان ودار فور غربا[2]. وما بين سنتى ٥٨٠ـ٦٥٢م

---

(1) Cf. John of Ephesus : Ecclessiastical History, part II, tr. by R. Payne Smith, London 1860. p. 319.

(2) Villard, Ugo Monnert de : Storia della Nubia Cristiana, Roma 1938, p. 156.

اتحدت المملكتان الشماليتان ـ نوباديا ومقرة ـ فى مملكة واحدة عرفت باسم مقرة أو النوبة كذلك . كما عرف جزؤها الشمالى « نوباديا » ، باسم مريس(٣).

ورثت هاتان المملكتان ما خلفته دولة مروى من مظاهر حضارية هى فى الواقع مزيج من ثقافات مختلفة، مصرية ويونانية ورومانية (مصدرها مصر بطبيعة الحال) فضلا عن ثقافات حبشية سبئية، ولا سيما فى ناحيتى الدين والفن وهى لا تخلو من آثار بدائية محلية. وعلى الرغم من استقلال هذه المنطقة سياسيا عن مصر فى العصور الوسطى إلا أن المؤثرات الثقافية والبشرية، ظلت تشق طريقها من مصر إلى هذه المنطقة جميعها ولاسيما جزءها الشمالى «مقرة» وذلك لقربه من مصر. فالمسيحية على مذهب الكنيسة المصرية مثلا ـ شأنها شأن الحضارة المصرية القديمة ـ دخلت السودان من الشمال . هذا فضلا عن انتشار اللغة القبطية فى النوبة الشمالية «مقرة»، واستخدامها فى الوثائق الرسمية وفى كثير من الأغراض الدينية كذلك(٤).

ويتصف الدور المسيحى من تاريخ النوبة ، بطابع حضارى خاص، يبدو واضحا فى نظمها السياسية والإدارية وحياة أهلها الاجتماعية والدينية . وإذا كانت معلوماتنا عن الحضارة النوبية فى مملكة علوة ، قليلة ـ بالقياس إلى جارتها مقرة فى الشمال ـ لضياع معظم آثار علوة ، إلا أن الكثير من مظاهر حضارتها ـ فيما يبدو ـ كانت تشبه ـ إلى حد بعيد ـ مظاهر الحضارة فى مملكة مقرة. والواضح من دراسة النظم السياسية والإدارية ، فى مملكة علوة ، أنها حكمت حكما ملكيا مطلقا . فكبيرها عرف باسم ملك علوة وعاصمته سوبا. وهو الذى يملك الأرض ومن عليها. واتبع ملوك علوة نظام

---

(3) Cf.Kirwan, L.P. : Nates on the topography of the Christian Nubian Kingdoms. Jour. Egypt. An. XXI, 1934, p. 57.

(4) Griffith, F. Ll. : «Christian Documents from Nubia». Proc. British Academy XIV, 1928, pp. 17-18. Griffith, F. Ll. Oxford Ex. in Nubia. p. 53.

الأمومة فى وراثة العرش[٥]. كما قضى نظام حكم الأقاليم، بتقسيم المملكة إلى ولايات أو ممالك صغيرة ، على رأس كل منها ملك . ولعل ملك إقليم الأبواب ، أعظم أولئك الملوك الإقليميين خطرا وأعلاهم مقاما ، وهو الذى عرف باسم الرحراح[٦].

وللمجتمع النوبى خصائص معينة انفرد بها . إذ أنه يشكل نوعا من الإقطاع ، غريبا فى تركيبه ؛ ولم يعرف له نظير فى الإقطاع الشرقى أو الغربى . فالأسرة المالكة وفروعها فى الأقاليم ، تمثل الطبقة الأرستقراطية، التى مارست وحدها حقوقا سياسية ودينية . أما الشعب كله ، فيمثله طبقة العبيد الكادحة فى الأرض ، التى لا يملكون منها شيئا . إنما تملكهم عليها ، تملك العبيد العاملين فيها لصالح سادتهم . فهم جميعا عبيد الملك ، يباعون ويشترون ، ويهدى بهم ويقومون مقام العملة[٧]. وبين هاتين الطبقتين ، قامت فئة الموظفين القليلة العدد ، التى تولت معظم الوظائف الملكية فى العاصمة والأقاليم .

واتجهت مملكة علوة فى زعامتها الروحية،إلى الكنيسة المصرية،التى كانت تمدها بالأساقفة المصريين . وظلت الطقوس الدينية فى كنائس علوة ، تؤدى باللغة اليونانية حتى القرن الثامن الميلادى ، حين ترجمت هذه الطقوس إلى اللغة النوبية ، التى لم تصبح لغة مدونة إلا فى حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى[٨] .

تلك هى الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية فى النوبة . ويلاحظ أن مملكة علوة ، ظلت متمتعة باستقلالها فى ظل هذه النظم مايقرب من عشرة قرون . ومرجع ذلك فى الغالب ، أن الدولة الإسلامية فى عز أيام توسعها ، لم تجنح إلى ضم مملكتى النوبة عنوة إلى أملاكها . وإذا كان العرب – بعد فتح مصر – جردوا حملتين لغزو النوبة الشمالية « مقرة » ، بقصد تأمين حدود مصر الجنوبية ، وتأكيد

(٥) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ص ٥٦

(٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص ١٩٣ – طبعة بولاق .

(٧) المقريزى : نفس المصدر ص ١٩٣

(٨) Cf. Griffith, Fll. : Christian Documents from Nubia, p.14

حقوقها التجارية فى النوبة ، إلا أنهم لم يحتلوها بقواتهم ؛ على الرغم من النصر الحربى الذى أحرزوه فى حملتهم الثانية عليها بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح سنة ٦٥٢م ودخولهم دنقلة العاصمة. بل عقد القائد العربى لأهل مقرة عقدا يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان على حدودهم من ناحية الجنوب ، وفتح النوبة للتجارة ، والحصول على عدد من الرقيق فى خدمة الدولة الإسلامية ، وحفظ مصالح المسلمين وحريتهم الدينية فيها[٩] .

هذا ولم يتعرض المسلمون لمملكة علوة ولم يفكروا فى احتلالها . ويبدو أن العرب أدركوا — منذ البداية — أثر الاتصال البشرى والثقافى الطبيعى بين مصر وهذه البلاد ، فى تغذيتها بالدماء العربية ونشر الثقافة الإسلامية فيها . فلم يهتموا باحتلالها . فعلى الرغم مما نص عليه عقد عبد الله بن سعد لأهل مقرة من عدم السماح للمسلمين بالدخول إلى بلادهم إلا للتجارة . فإن الجماعات العربية بالصعيد الأعلى لم تتقيد بهذا الشرط . بل أخذت فى التسرب التدريجى إلى بلاد النوبة السفلى « مريس »[١٠] وظلت هذه المنطقة ، وما جاورها شرقا فى أوطان البجة ، تستقبل كثيراً من القبائل العربية ، ولا سيما بعد أن فقد العرب نفوذهم القديم ، بقطع العطاء عنهم ، منذ عهد الخليفة المعتصم بالله العباسى ، وضغط الولاة الأتراك عليهم فى مصر ، منذ منتصف القرن التاسع الميلادى . واختلط العرب بالنوبيين والبجة ، واعتنق كثير منهم الإسلام ولم يعد لملوك النوبة « مقرة » فى منطقة مريس سوى نفوذ إسمى ، ثم إن اشتراك كثير من القبائل العربية فى مصر فى الحملات المملوكية على مقرة ، لم يؤد إلى إخضاعها للسلطنة المملوكية فحسب ، بل أدت إلى استقرار معظم هذه القبائل العربية فى مقرة ، وعدم العودة إلى مصر صحبة الجيوش المملوكية[١١] .

ومما لاشك فيه ، أنه كان لاستقرار كثير من القبائل العربية فى مقرة الأصلية (Maqurra proper) بعد أن أضحى الطريق ممهدا لانسيابها جنوبى الشلال الثانى —

---

(٩) راجع عقد عبد الله بن سعد للنوبيين فى المواعظ والاعتبار للمقريزى ج ١ ص ١٩٩

(١٠) المسعودى : مروج الذهب . نشر دى مينار ج ٣ ص ٤١

(١١) مصطفى مسعد : ممالك النوبة المسيحية — اضمحلالها وسقوطها. رسالة لم تنشر ص ١٨

أثر واضح فى صبغ هذه البلاد وسكانها بصبغة عربية . ولعل بنى كنز كانوا أقوى هذه العناصر ، التى أتيح لها أن تشارك فى حوادث هذه الدولة ، باشتراكهم فى معظم هذه الحملات المملوكية على مقرة ، ثم مكنوا لأنفسهم فيها بمصاهرة البيت المالك النوبى فى دنقلة . فادعى أميرهم بحقه فى ملك مقرة ، عن طريق وراثة الأم(١٢) . واستعان بنو كنز بالعرب المهاجرين والنوبيين المتوطنين فيها ، فانتزع أميرهم كنز الدولة ، ملك مقرة ، وأعلن استقلاله عن السلطنة المملوكية سنة ١٣٢٣م . ويبدو أن العرب كانوا من القوة والكثرة العددية ، بحيث تمكنوا من التغلب على بيوت الإمارة النوبية القديمة فى مقرة ، فضلا عن تحدى السلطان المملوكى والاستقلال عنه . فما كان يفيد كنز الدولة فى كثير أو قليل حقه المشروع فى ملك مقرة — عن طريق وراثة الأم — لولا ما اجتمعت إليه من قوة العرب المهاجرين ، والنوبيين المتوطنين ، الذين تأثروا بهم وامتزجت دماؤهم بدمائهم . ولم يقتصر دور العرب الذين استقروا فى مقرة ، على القضاء على البيت الملكى بها ، بل إن اختلاطهم بالنوبيين فى مريس ، منذ القرن التاسع الميلادى ، ثم فيما يليها جنوبا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى على الأقل ، أدى إلى انتشار الإسلام بين النوبيين ، الذين يقول عنهم ابن خلدون « إن الجزية انقطعت بإسلامهم(١٣) ، ولم تشر المراجع إلى اسم ملك مسيحى لمملكة مقرة ، بعد كنز الدولة ، والراجح أن خلفاءه جميعا ، إما أنهم كانوا عربا ، أو نوبيين مستعربين ».

لم تستقر أحوال هذه المملكة ، بعد سقوطها فى أيدى بنى كنز . بل أضحت مسرحا للاضطرابات ، التى كانت من عمل بنى كنز ، أو غيرهم من القبائل العربية ، التى استقرت فى مملكة مقرة ، مثل بنى جعد وبنى عكرمة ، والهوارة ، وبنى هلال وغيرها ، بسبب التنافس على السلطة(١٤) . وفى القرن الخامس عشر الميلادى ، تم اختلاط هؤلاء

---

(١٢) النويرى — نهاية الأرب فى فنون الأدب — مخطوطة ج ٣٠ — ورقة ٩٥
المقريزى — السلوك لمعرفة دون الملوك — نشر زياده ج ٢ — القسم الأول ص ١٦١

(١٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر — ج ٥ ص ٤٢٩

(١٤) Quatremére, E. : Memoires geog. et hist. sur l'Egypte et sur quelques Contreés voisins, II, pp. 120-122.

وأولئك جميعا بالنوبيين ، من أسوان حتى دنقلة . وانتشر الإسلام وتكونت المجموعات النوبية المستعربة ، التى لا تختلف فى صفاتها الطبيعية وملامحها عن النوبيين الحاليين وهم : الكنوز ، والفديجة ، والسكوت ، والمحس ، والدناقلة .

لم يمض أقل من قرن على سقوط مملكة مقرة المسيحية ، حتى سقطت جارتها فى الجنوب « علوة » . فقد كان لقطع العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية وكنائس علوة ، وتوقف إرسال الأساقفة المصريين إلى بلاد النوبة ، منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أثر خطير فى حياة النوبيين الدينية ، فأهملت الطقوس الدينية ، وهجرت الكنائس النوبية وضرب معظمها . وقد حفظ قسيس برتغالى يدعى ألفارز ، الذى زار الحبشة بين سنتى ١٥٢٠–١٥٢٧م ، صورة عن أحوال النوبيين (أهل علوة)الدينية ، أوائل القرن السادس عشر الميلادى بقوله « ... إن أولئك النوبيين يجهلون دينهم ، فلاهم بالمسيحيين ولاهم بالمسلمين أو اليهود . ويقال إنهم كانوا على النصرانية ، غيرأنهم فقدوا دينهم ، ولم تبق لهم عقيدة . ويأملون أن يكونوا مسيحيين » . ويبدو من قول الفارز ، أن النوبيين فشلوا فى الحصول على قساوسة من كنيسة الإسكندرية ، فبعثوا إلى نجاشى الحبشة سنة ١٥٢٢م ، ليرسل إليهم من يرشدهم فى دينهم . غيرأن النجاشى اعتذر عن تلبية هذه الرغبة ، إذ أنه يعتمد على البطريرك فى بلاد المسلمين فى إرسال « أبونا » ، فكيف يعطيهم من يتفضل بهم عليه غيره . ومما زاد فى عزلتهم سقوط مملكة مقرة فى الشمال ، واعتناق أهلها الإسلام . وذكر الفارز نقلاعن بعض الأحباش أنه منذ وفاة أسقف النوبة (علوة) من أمد بعيد ، لم يخلفه غيره ، بسبب الحروب بين القبائل العربية فى بلاد النوبة الشمالية (مقرة) . فتركت كنائسهم دون رعاية رجال الدين ، فنسوا كل شىء عن المسيحية. وثمّ دليل على هجر النوبيين كنائسهم وتخريب معظمها ، ماذكره الفارز كذلك نقلا عن حنا السورى الذى زار علوة قبل ذلك بقليل حيث يقول « إنه كان بها ١٥٠ كنيسة قديمة تحمل جدرانها صور السيد المسيح والعذراء »(١٥).

(15 Father Francisco Alvarez : Narrative of the Partuguese Embassy to Abyssinia. p. 65, p. 352.

وهذا عدد قليـل بالقياس إلى ما عرف عن عدد كنائس علوة ، حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، والتى بلغ عددها ـ على قول أبى صالح ـ حوالى ٤٠٠ كنيسة[١٦] .

أما الروايات التاريخية الوطنية ، فأجمعت على أن نهاية مملـكة علوة وسقوطها ، أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) تمّ على يد جماعة من العرب والفونج . ويعنى هـذا أن العرب وحلفاءهم ، استطاعوا أن يسقطوا هذه المملـكة ، بفضل كثرتهم العددية ، أو أن أحوال هذه المملـكة كانت اضمحلالية ، بحيث لم تقو على مواجهة ضغط هذه القبائل. وإذا سلمنا بصحة هذه الروايات التاريخية ، فيما يتعلق بدور العرب وحلفائهم ضد هذه المملـكة المسيحية ، فإن هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأنه سبق سقوطها، وصول جماعات عربية فى أعداد وفيرة ، حتى تسنى لها طبع هذهالبلاد وسكانها المسيحيين بطابع مخالف ، هو الطابع العربى الإسلامى .

وإذ أشار المؤلفون المسلمون إلى هجرة بعض القبائل العربية ، من مصر ، إلى بلاد النوبة الشمالية (مقرة) ، وأوطان البجة ، فإن أحدا من أولئك المؤلفين ـ على مانعلم ـ لم يشر إلى مثل هذه الهجرات العربية إلى بلاد علوة . بل إن أخبار هذه الهجرات ، واستقرار القبائل العربية وبطونها المختلفة فيها ، جاء من مصادر سودانية . وهى عبارة عن أوراق النسبة التى يحتفظ بها كثير من الأسرات السودانية فى الوقت الحاضر[١٧] .

فضلا عن ذلك ، فإن بعض الروايات التاريخية ، تشير إلى هجرة بعض الجماعات العربية عبر البحر الأحمر ، سواء أكان هذا قبل الإسـلام أو بعده ، على أثر وقوع أحداث هامة فى بلاد العرب . ومن بين هـذه الأحداث ، تخريب سد مأرب ، واضطهاد قريش للمسلمين ، وحروب الرِّدّة ، والنزاع على الخلافة بين الأمويين

---

(١٦) أبو صالح ـ تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمنى ـ نشر إيفت . ص ١٢٠

(١٧) جمع ماك ميكل معظم أوراق النسبة العربية فى السودان ونشرها فى مؤلفـه الضخم المعروف باسم A History of the Arabs in the Sudan II.

والعلويين ، وسقوط الدولة الأموية كذلك . فالمعروف أن عدداً من المهاجر العربية استقرت فى جهات متفرقة فى منطقة النيل الأزرق والأتبرا والحبشة[١٨] . وإذا كانت هذه الهجرات السابقة للإسلام، قليلة العدد ، محدودة الأثر ، فلا شك فى أن أعدادها، زادت زيادة واضحة عقب الفتح العربى لمصر ، حتى سمح للعرب ـ المهاجرين أو المترددين على علوة للتجارة وغيرها ـ ببناء مسجد فى سوبا[١٩] .

وموضع الأهمية هنا، هل ظلت الجزيرة العربية، هى المصدر الوحيد لتلك الهجرات العربية الإسلامية ، إلى حوض النيل الأوسط ، عبر البحر الأحمر مباشرة ، أو كانت هنالك مصادر أخرى شاركت، أو انفردت بتعريب هذا الجزء من حوض النيل؟ إن ثم رأيا يقول : هناك ثلاثة أبواب ، دخلت منها الدماء العربية ، ومعها الثقافة العربية إلى السودان ـ فالباب الشرقى من السودان كان واحدا من هذه الأبواب ...... والباب الثانى هو الباب الشمالى، فى وسط السودان، الذى يفضى إلى مجرى النيل .... أما الباب الثالث فهو الطريق الشمالى الغربى، أو الطريق الليبى ..... ولعل هذا الباب لم يكن مصدرا للثقافة العربية إلا بعد الإسلام[٢٠] . ويعنى هذا أن كلا من الجزيرة العربية ومصر ، كانا مصدرا للهجرات العربية ، التى حملت معها الثقافة الإسلامية ، إلى حوض النيل الأوسط . ومع تسليم الدكتور محمد عوض محمد بأهمية مصر ، كمصدر للثقافة العربية فى وادى النيل الأوسط ، إلا أنه لم يقلل ، من أهمية الجزيرة العربية ، كمصدر مباشر للهجرات العربية ، التى قامت بنصيبها فى نشر العروبة فى هذا الإقليم .

غير أن هنالك من يرى أن الجزيرة العربية كمصدر مباشر للهجرات العربية، إلى حوض النيل الأوسط عبر البحر الأحمر مباشرة ، وبالتالى كمصدر للثقافة الإسلامية فيه كانت قليلة الأهمية ، ضعيفة الأثر ، بالقياس إلى المصدر الشمالى وهو مصر . فيقول

(١٨) انظر ـ ممالك النوبة المسيحية ـ اضمحلالها وسقوطها . ص ١١٣، ١٢٣

(١٩) أرنولد ـ الدعوة إلى الإسلام ـ ص ١٠٠

(٢٠) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله ص ١٥٩ ـ ١٦٠ الطبعة الأولى .

الأستاذ عمار : إذا نحن استثنينا تلك الجماعات العربيه القليلة التى وصلت إلى السودان رأسا ، عبر البحر الأحمر ، سواء أكان ذلك قبل الإسلام، أم زمن التوسع الإسلامى أم كانت هجرات حديثة كالتى أوصلت قبائل الرشايدة ، إلى حيث ينزلون الآن ، فى الشمال الشرقى للسودان ، فإن تعريب السودان فى الواقع إنما تم عن طريق مصر — إذ لا يسجل التاريخ — فى أى عهد من عهوده ، وصول موجات هامة، أو هجرات عنيفة إلى السودان،عن طريق غير طريق مجرى النيل من الشمال إلى الجنوب(٢١) ونجد للرأى الأخير تأييدا ، فيما ذكره ماك ميكل، إذ يقول: إن بعض القبائل العربية فى السودان تدعى أن أجدادها، وصلوا من جزيرة العرب مباشرة، إلى السودان، عبر البحر الأحمر، لتأييد دعواهم فى الانتساب إلى أصل شريف، أموى أو عباسى ، أو أنهم سلالة بعض صحابة رسول الله . ومع التسليم بوصول بعض الأسر العربية ، من حين إلى آخر، عبر هذا الطريق ، إلى السودان ، إما للتجارة ، أو اتخاذه مكان هجرة ، أو بحثا عن المراعى كما فعلت قبيلة الرشايدة حديثا ، فإن التاريخ لم يسجل وصول هجرات واسعة ، عبر هذا الطريق ، مثلما سجل عن هجرة هذه القبائل العربية إلى مصر(٢٢) .

وكيفما كان الأمر، فالمعروف، أن كثيرا من الجماعات العربية انتقلت من مصر جنوبا، حيث استقرت فى بلاد النوبة الشمالية، وأرض البجة، عقب الفتح العربى لمصر واختلطت الجماعات بعضها ببعض ، اختلاطا كان يغذيه وصول القبائل وسكناها بين النوبيين والبجة، حينا بعد حين، ولاسيما بعد منتصف القرن التاسع الميلادى. وزادت جموع العرب المهاجرين ، من مصر جنوبا زيادة واضحة، عقب قيام السلطنة المملوكية فى مصر ، فى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، ثم سقوط مملكة مقرة المسيحية ،

---

(٢١) عباس عمار : وحدة وادى النيل : أسسها الجغرافية ومظاهرها فى التاريخ . ص ٨٠

(٢٢) Hamilton, J. A. de C. ed : The Anglo Egyption Sudan from Within. «The coming of the Arabs in the Sudan» by MacMichael pp. 46-47.

بعد ذلك فى يد العرب ، أوائل القرن الرابع عشر الميلادى. ومرجع ذلك فى الغالب ـ على قول ماك ميكل ـ أن أولئك العرب لم يطب لهم المقام فى مصر ، ولا سيما بعد أن فقدوا ميزاتهم القديمة . وأصبح ينظر إليهم كعنصر غير مرغوب فى بقائه . فاستبدلوا بقوات حربية نظاميـــة مدربة لأنهم لا يجيدون سوى شن الإغارات للحصول على الغنائم ، فضلا عن مماطلتهم فى دفع الضرائب وإثارة القلاقل. وفى القرن الرابع عشر أصبح ينظر إليهم على أنهم خارجون على القانون . ثم إن رغبة العرب فى العيش عيشة البداوة والحرية ـ التى تعودوها فى بيئتهم الأصلية والبحث عن مراع واسعة تناسب حياة الإبل والأغنام ، والتى لا يتوفر وجودها فى مصر ـ دفعت بالعرب إلى الهجرة جنوبا ، حيث البيئة الرعوية، التى تشبه بعض جهاتها البيئة الأصلية فى الجزيرة العربية هذا فضلا عن رغبتهم فى الحصول على الرقيق[٢٣]. ثم إن السلطنة المملوكية سمحت لأولئك العرب بالرحيـل من مصر ، وأكثر من هذا ، أنها أمعنت فى مطاردتهم جنوبى مقرة ذاتها ، بدليل ما ذكره النويرى أن حملة مملوكية جردها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦١٧ هـ (٣١٧ م) ، ضد العرب الذين يسكنون حول عيذاب ، لاعتدائهم على بعثة أرسلها ملك اليمن بهدية إلى السلطان المملوكى . وأوغلت هذه الحملة جنوبا حتى سواكن ، واتجهت غربا إلى التاكه ، وإلى جهة الأبواب ، ثم عادت إلى مصر عن طريق دنقلة[٢٤].

والواضح تماما ، أن سقوط مملكة مقرة المسيحية أوائل القرن الرابع عشر الميلادى أدى إلى ازدياد موجة الهجرات العربية ، ولاسيما بعد أن بات السابقون من العرب فى شغل بمنازعاتهم الداخلية عن المهاجرين الجدد . وربما كان أشد هذه الهجرات الجديدة عنفا هجرة جهينة التى أشار إليها ابن خلدون[٢٥]، وهى واحدة من خليط هائل من

(٢٣) Hamilton, ed : op. cit. 47-50.

(٢٤) النويرى ـ نهاية الأرب مخطوطة جـ ٣٠ ـ ص ٩٦ـ٩٧ ـ المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ١٦٢

(٢٥) ابن خلدون : العبر جـ ٥ . ص ٤٢٩

القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة ، التى تجمعت فى أنحاء النوبة الشمالية . ونشأت على أثر ذلك بعض المهاجر العربية قرب سنار الحالية . والراجح أن معاينة هذه الجماعات للمراعى الغنية ، ترامت أخبارها إلى ذويهم فى الشمال، فاندفعت جموعهم جنوبا ، ولاسيما أولئك الذين حافظوا على بداوتهم بعد أن ضاقت بهم مهاجرهم فى النوبة الشمالية ، بسبب فقر بيئتها وندرة مراعيها[٢٦].

لكن كيف شق أولئك المهاجرون طريقهم نحو الجنوب ؟ هل اضطروا إلى شن الإغارات على الوطنيين ، والدخول فى حرب ضد مملكة علوة المسيحية ؟ يقول ابن خلدون : « وانتشروا (أى جهينة) ، ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكاثروا هنالك سائر الأمم، وغلبوا على بلاد النوبة، وفرقوا كلمتهم، وأزالوا ملكهم، وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد »[٢٧]. والمفهوم من هذا ، أنه بعد سقوط دنقلة فى يد العرب ، أضحت المنطقة الممتدة من حلفا الحالية إلى شمال غربى الحبشة مسرحا لأعمال النهب والتخريب مدة لاتقل عن ثلثمائة عام[٢٨]. وأن العرب فى تقدمهم جنوبا ، قتلوا كثيرا من النوبيين ، وأسروا بعضهم، حتى اضطر كثير من النوبيين إلى الهجرة غربا إلى تلال نوبا فى جنوب كردفان ، وجبل حرزا وكاجا وغيرها فى شمال كردفان[٢٩] . غير أنه يبدو أن العرب ، لم يقابلوا فى تقدمهم جنوبا إلى جهات علوة وغيرها مقاومة عنيفة ، لعجز ملوكها عن دفعهم . وإذا كانوا اضطروا أحيانا إلى استخدام العنف ، فإن الطابع العام لهذه الهجرات ، كان طابعا سلميا . ونجحوا فى تحقيق مآربهم ، لا بحد السيف بل بالاختلاط والتزاوج من بنات النوبيين وملوكهم . ويقول

---

(٢٦) Triminghn, J. s : Islam in the Sudan, p. 71.

(٢٧) ابن خلدون ـ نفس المصدر ج ٢ . ص ٢٤٧

(٢٨) Walkely, C. E. J. : «The story of Khartoum», Sudan Notes and Records. Part II, 1935, p. 124.

(٢٩) Sager, J. W. Notes on the history, religion, and customs of the Nuba. Sudan Notes and Records, V, part, III, p. 139

ماك ميكل « إن الدلائل تشير إلى أن النصر ـ باستثناء أقاليم معينة كإقليم جبال النوبة حيث لا يزال العرب يمتلكون السهول ، على حين يسكن الزنوج التلال ـ قد تم غالبا بالاتفاق والتزاوج أكثر مما اكتسب بقوة السلاح . ويمكن القول إن الظاهرة الأساسية فى التاريخ الجنسى لشمال السودان ووسطه ، منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، كانت ظاهرة الاندماج التدريجى بين العرب والسود»[٣٠].

لاشك أن لهذا الرأى وجاهته ، فهو يتفق وما ذكره ابن خلدون فى صدد هجرة جهينة إلى بلاد النوبة (علوة) . فيقول ابن خلدون ، « ... ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة فى بلادهم ، واستوطنوها ، وملكوها ، وملئوها عبثا وفسادا . وذهب ملوك النوبة (فى علوة) إلى مدافعتهم ، فعجزوا ، ثم صاروا إلى مصانعتهم بالمصاهرة[٣١]» . أما عن اضطراب الأمن فى بلاد النوبة وأوطان البجة حتى الحدود الحبشية ، فكان بسبب النزاع بين القبائل العربية ذاتها لسبب أو لآخر . وتشير بعض الروايات التاريخية ، إلى وجود مثل هذا النزاع ، بين قبيلتى جهينة ورفاعة أواخر القرن الثالث عشر الميلادى قرب عيذاب . ولعل فى إشارة ابن خلدون إلى انقسام العرب على أنفسهم ، مايزيد فهمنا لما صار إليه هذا الجزء من حوض النيل ، أوائل القرن الخامس عشر الميلادى . إذ يقول « واستولى أعراب جهينة على بلادهم (أى النوبيين فى علوة) ، وليس فى طريقه شىء من السياسة الملوكية ، للآفة التى تمنع انقياد بعضهم إلى بعض . فصاروا شيعا لهذا العهد[٣٢] » . أما ماذكره بعض المؤرخين من التجاء بعض العناصر النوبية إلى جبال جنوب ووسط كردفان ودارفور، هربا من مذابح العرب، فليس هنالك مايؤيده. والراجح كما يقول ماك ميكل، أن أولئك المهاجرين، من بلاد النوبة الشمالية ، عقب سقوط دنقلة ، إلى جهات كردفان ودارفور ، لم يكونوا نوبيين خلصا ، بل كانوا يمثلون خليطا من العرب والنوبيين (النوبيين المستعربين) .

(٣٠) Hamilton, ed : op. cit. p. 59

(٣١) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٥ ـ ص ٤٢٩

(٣٢) المصدر السابق

ومن هؤلاء سكان جبل ميدوب فى شمال دارفور والتنجور والبرقد كذلك[٣٣] .

أما عن الطرق والمسالك التى سلكتها الجماعات العربية المختلفة ، إلى حوض النيل الأوسط ، فمن بينها الطريق الذى يتجه جنوبا بشرق من أسوان وكرسكو عبر أوطان البجة ، الموازية للبحر الأحمر . غير أن أهمية هذا الطريق ، محدودة بالقياس إلى الطرق الأخرى ، لقلة الماء وفقر المرعى . والغالبية العظمى من العرب المهاجرين ، من مصر إلى حوض النيل الأوسط سلكت الطريق الذى يتبع مجرى النهر إلى منطقة دنقلة . وإذا كانت بعض القبائل آثرت أن تستقر على جوانب النهر ، فإن منها من انتقل غربا بطريق وادى القعب ، ونزل الأراضى المحيطة به . وسلك الآخرون الطريق الذى يبدأ من كورتى على طول وادى مقدم ، وعبر الدية على طول وادى الملك إلى كردفان ، حيث تتفرع الهجرات على شكل المروحة . فمنها مايتحرك إلى دارفور ، ومايليها غربا وجنوبا ، ومنها مايسير على جوانب النهر الأعظم ، وعبر صحراء بيوضة وأعلا الأتبرا ، والنيل الأزرق فى اتجاه جنوبى شرقى إلى حدود الحبشة[٣٤] .

وثمة رأى آخر يقول : إن الجماعات العربيـة التى هاجرت من مصر جنوبا إلى السودان ، بطريق النيل ، لم تلازم النهر فى كل جزء منه . بل سلكت طريقاً يتابع النهر من جنوب أسوان إلى كرسكو ، أو قبلها . ثم يخترق صحراء العتمور مباشرة إلى أبو حمد ، حيث يتابع النهر مرة أخرى ويلازمه نحو الجنوب[٣٥] . غير أن هـذا الطريق ، إذا صح وسلكته بعض الجماعات العربية ، فلابد وأن يكون هذا حدث قبل سقوط دنقلة ، أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، لمنع العرب أو غيرهم من غير النوبيين ، التقدم جنوبى الشلال الثانى إلا للتجارة . وبسقوط دنقلة ، انفتح الباب

(٣٣) Mack Micheal, H. A. : «Nubian elements in Darfour», Sudan Notes and Records, I, part, I, 1918, p.44.

(٣٤) Hamilton, ed· : op. cit. p. 55.

(٣٥) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى . ص ١٦٠ـ١٦١

أمام الجماعات العربية المختلفة للانسياب جنوبا على طول النهر ، الذى كان دائما الطريق الطبيعى للهجرات منذ فجر التاريخ ، وذلك لإحاطته بصحراء قاحلة جرداء . على حين أن واديه الضيق يسمح بمرور القطعان ، حيث يوجد الماء والعشب كذلك[٣٦] .

اشتملت الجماعات العربية التى هاجرت إلى حوض النيل الأوسط على المجموعتين العربيتين : وهما مجموعتا العدنانيين والقحطانيين ، ويمثل العدنانيين فى الوقت الحاضر الكواهلة والمجموعة الجعلية ، وبعض القبائل الصغيرة الأخرى كالرشايدة . ويمثل القحطانيين ، المجموعة الجهنية . إذن متى دخلت هذه الجماعات العربية حوض النيل الأوسط . وكيف تم انتشارها على هذه الصورة ؟ إن أول إشارة إلى بنى كاهل وردت فى رحلة ابن بطوطة إلى عيذاب وسواكن ، فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى (١٣٥٣ م) . فذكر أن أولاد كاهل يسكنون المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن. وهم مختلطون بالبجة عارفون بلسانهم[٣٧] . وليس من المعروف تماما ، متى استقر أولاد كاهل بين البجة . والراجح أن هجرتهم إلى هـذا الإقليم سابقة لهذا التاريخ (منتصف القرن الرابع عشر الميلادى) ، بدليل معرفتهم لغة البجة .

ويقال إن الكواهلة ينتسبون إلى كاهل بن أسد بن خزيمة . وأنهم جاءوا إلى السودان من جزيرة العرب مباشرة ، عبر البحر الأحمر ، واستقروا فى الإقليم الساحلى ، بين سواكن وعيذاب[٣٨] . غير أنه لا يوجد من الدلائل ما يؤيد هذه الصلة المباشرة بالجزيرة العربية . والأرجح أن هجرة أولاد كاهل كانت عن طريق مصر . إذ تقول روايات العبابدة ، أنهم ينتسبون إلى عباد من نسل الزبير بن العوام . وأن جدهم عبادا قدم من جزيرة العرب إلى مصر ، فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم مات ودفن

---

(٣٦) Firth, C. M. : The Archaelogical Survey of Nubia, Report 1910-11. p. I.

(٣٧) ابن بطوطة ــ تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . ج ١ ص ١٥٤

(٣٨) محمد عوض محمد ــ السودان الشمالى . ص ١٤٣

فى وادى عباد قرب أدفو . وأن عباداً هذا جد كاهل[٣٩] . ومن ذريته أولاد كاهل الذين أشار إليهم ابن بطوطة . واختلط أولاد كاهل بالبجة ، عن طريق المصاهرة ونالوا مراكز الزعامة فيهم . وعلى الرغم من أن كثيراً من الجماعات العربية اختلطت بالبجة ، وتصاهرت معهم ، منذ القرن التاسع الميلادى ، حتى اعتنق كثير منهم الإسلام ، فإن البشاريين والأمرار وبنى عامر ، ينتسبون كذلك إلى كاهل، مما يدعونا إلى الاعتقاد ، أنه كان لبنى كاهل الأثر الأكبر فى نشر الإسلام والثقافة العربية فيهم[٤٠] .

ومن المؤكد أن أولاد كاهل ، عاشوا زمنا فى الأقاليم الساحلية الشرقية ، والمناطق التى تليها ، واشتغلوا بالتجارة وتنظيم القوافل ، بين النيل والبحر الأحمر . ثم انتشروا انتشارا تدريجيا نحو الغرب ، وعرف هؤلاء جميعا باسم الكواهلة . ويمكن تقسيم هذه الحركة كلها إلى مراحل ، تمثل الأولى منها نزولهم فى الساحل واستقرارهم فيه فى القرن الثالث عشر الميلادى، حيث رآهم ابن بطوطة ، مختلطين بالبجة فى منتصف القرن الرابع عشر . وتمثل المرحلة الثانية ، انتقال شُعَب منهم إلى جهات أتبرا والنيل الأزرق ، فى القرن الخامس عشر الميلادى، واحتشدوا فيه . وتمثل المرحلة الثالثة ، انتقال جماعات منهم آتية من الشرق ، ونزحت إلى جهات النيل الأبيض ، ثم إلى كردفان فى أزمنة متعاقبة . وبهذا أضحى للكواهلة أوطان ثلاثة : أولها فى منطقة الأتبرا والنيل الأزرق ، والثانية فى منطقة النيل الأبيض ، والثالثة فى كردفان . والواضح أن معظم هذه الأوطان، التى استقروا فيها، منذ القرن الخامس عشر الميلادى، على الأقل ، كانت جزءًا من مملكة علوة المسيحية وعاصمتها سوبا . غير أنه لم يصلنا شىء عن تاريخ هذه المرحلة من تاريخهم . ومع هذا فإن القليل الذى عرف عن رواياتهم وقصصهم فى وقت متأخر (القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد) ــ ولاسيما شعبة النيل الأبيض ــ يدل على أنهم استعملوا الحيلة أحيانا والحرب أحيانا أخرى ،

(٣٩) Hurray, G. W. : Sons of Ismail, p. 30.

(٤٠) محمد عوض محمد ــ السودان الشمالى . ص ١٤٤

لتوطيد أقدامهم . وتدل الأمثلة السائرة عند بعض شعبهم ، أنهم اتبعوا سياسة يبدو أنها متأصلة فى بنى كاهل ، وهى أن ينزلوا غرباء ، ويدفعوا لأصحاب البلاد أجراً عن الأراضى التى يحتلونها . حتى إذا كثر عددهم ، ادّعوا الحق فيها ، والتجأوا إلى القوة لإثبات حقهم[٤١] .

أما المجموعة الجعلية ، فتركزت على النيل الأعظم ، من جنوب الخرطوم الحالية ، حتى دنقلة . وتمثل هذه الشقة من النهر المركز الرئيسى ، الذى انتشرت منه فى شعب وفروع نحو البطانة ، والنيل الأزرق ، والنيل الأبيض جنوب الخرطوم، ونحو الغرب إلى كردفان . وفى الشمال حيث يعيش بعضهم ، مثل الجوابرة والركابية وسط الجماعات النوبية .

وليس من المعروف تماما ، متى بدأت هجرة هـــذه الجماعات ، إلى حوض النيل الأوسط ، ومن الجائز استنادا على بعض الروايات الوطنية ، أن تـكون بدأت هجرتها من مصر ، إلى هذا الإقليم ، منذ حوالى أواخر القرن العاشر الميلادى[٤٢] ، سالـكة طريق العتمور ، لتجنب مملـكة مقرة المسيحية . ثم لحق بها عدد كبير فى العهد المملوكى، ولا سيما بعد سقوط دنقلة ، سالـكين طريق النيل من الشمال إلى الجنوب ، حيث استقروا فى أوطانهم الحالية ، على النيل الأعظم .

ويقال إن الجعليين ينتسبون إلى إبراهيم الملقب بجعل ، من نسل العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم . وترجع أسباب هذه التسمية إلى أن إبراهيم هذا ، كان جوادا مضيافا . وأنه كان يقول للوطنيين وغيرهم من العرب « إنا جعلنا كم منا[٤٣] » ، أى أصبحتم منا .

---

(٤١) المصدر السابق ص ١٥٠ وانظر Reid, J. A. «Some Notes on the Tribes of White Nile Province» Sudan Notes and Records, XIII, part II, pp. 149-210

(٤٢) Mac. Michael, H.A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan, II, p. 348.

(٤٣) Ibid : op. cit. I, p. 197.

وتدل هذه العبارة وكثرة ترديدها ، أن التوغل العربى فى هذه المنطقة ، كان توغلا سلميا ، مبنيا على التودد إلى السكان الوطنيين . ويقول ماكايكل إن انضواء كثير من الجماعات العربية ، وغيرها من الوطنيين تحت لوائه ، جعل ذريتهم من هـــذا الخليط يدعون جميعا النسب إلى العباس(٤٤) .

والراجح أن الجعليين ، لم يكونوا أول الأمر قبيلة واحدة ، بل مجموعة قبائل ذات نسب متقارب . وهاجرت على دفعات وعلى مدى قرون ، وبسطت نفوذها على هذه الجهات قطرا بعد قطر ، إلى أن نشأت بينهم أسرة قوية ، تولت الزعامة ووحدت القبيلة ، فضلا عن إدماج المجموعة كلها بعضها فى بعض ، وإدماج السكان الأصليين فى المجموعة العربية(٤٥) .

وتشتمل المجموعة الجعلية على عدد كبير من القبائل ، منها الجعليون الأصليون الذين ليس لهم اسم آخر . وتمتـد مواطنهم من خانق سبلوقة إلى الأتبرا ــ والميرفاب إلى شمال الأتبرا ، حول بربر ــ والرباطاب من بربر إلى أبو حمد ــ والمناصير من أبو حمد إلى آخر الشلال الرابع ــ والشايقية ، من الشلال الرابع إلى إقليم الدبة ــ والجوابرة (بنى جابر) ، بين الدناقلة والمحس ــ والركابية ، ويشك فى نسبتهم إلى الجعليين ، وهم من العرب الشماليين ، ومواطنهم وسط بلاد المحس ــ والجموعية وأتباعهم شمال وجنوب أم درمان إلى حدود الـكواهلة ــ والبديرية وبعضهم فى النوبة والبعض الآخر فى كردفان . هـــذا فضلًا عن قبائل أخرى مبعثرة بين كردفان والنيل الأبيض والبطانة(٤٦) .

وثمت ظاهرة توجب الالتفات ، وهى أن الإقليم الذى تحتله المجموعة الجعلية على النيل من جنوب الخرطوم حتى دنقلة ، غلبت عليه الصبغة العربية والثقافة العربيـــة ،

---

(٤٤) Ibid. S. N. R. , I, 1918, p. 13.

(٤٥) محمد عوض محمد ــ نفس المصدر ص ٢١١

(٤٦) المصدر السابق ص ١٦٨

مما يدل على أن هذه الجماعات التى هاجرت إلى هذا الإقليم ، على مدى القرون ، كانت قوية كثيرة العدد ، حضرية لا تميل إلى حياة البداوة . ولهذا فضلت الاستقرار فى مدن على طول النيـــل . على حين أن غيرها من الجماعات التى حافظت على بداوتها ، انتشرت غربا وشرقا وجنوبا فى طلب حاجات الرعى .

والمجموعة العربية الثانية — فى حوض النيل الأوسط ، بعد الجعليين من حيث عدد القبائل والبطون — هى المجموعة الجهنية التى تدعى الانتساب إلى عبد الله الجهنى . وإذا كان يشك فى صحة هـــذه النسبة ، فإن جميع الشواهد تدل على نسبتها إلى قبيلة جهينة القحطانية ، التى عاشت حول ينبع من حوالى ١٣٠٠ سنة . ومن هذا المركز توالت هجراتها إلى مصر . ثم توالت هجراتها جنوبا إلى بلاد النوبة ، وأوطان البجة ، منذ منتصف القرن التاسع الميلادي . وانتشرت جماعات من جهينة فى أوطان البجة حتى وصلت سواكن فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى . بدليـــل ما أشار إليه المقريزى ، من نشوب نزاع بينها وبين رفاعة ســنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) ، قرب سواكن(٤٧) . ثم انتشروا جنوبا إلى أرض الحبشة . ولابد أنها كانت من القوة بحيث يقول عنها ابن خلدون ، إنها حاربت الحبشة وأرهقتها حتى هذا الحين ، وهو أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

أما الجماعات الجهنية التى انتقلت إلى أرض مقرة ، فإنها احتشدت فيها ، حتى إذا كان منتصف القرن الرابع عشر ، أخذت فى الانتشار جنوبا متتبعة مواقع الغيث. ويدل هذا على أن جهينة سلـكت فى تقدمها جنوبا مسالك مختلفة ، أهمها الطريق الشرقى عبر أوطان البجة ، والآخر طريق النيـل . ومنها احتات أقاليم موزعة بين الأتبرا والنيل الأزرق شرقا ، إلى أقاصى دارفور غربا .

وتنقسم القبائل الجهنية فى حوض النيل الأوسط إلى ثلاث مجموعات رئيسية : الأولى وتشمل رفاعة (ومعها أقرباؤها من القواسمة والعبداللاب والعركيين وغيرهم) —

---

(٤٧) المقريزى — السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٠٠

والمحويين ـ والحلويين ـ والعـوامرة ـ والخوالدة ـ والشكرية . ومواطنهم جميعا فى أقاليم النيـل الأزرق والبطانة ، أى فى النصف الشرقى من السودان . وتشتمل المجموعة الثانية على دار حامد ـ وبنى جرار ـ والزيادية ـ والبزعة ـ والشنابلة ـ والمعاليا . ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم فزارة . ويعيشون فى المنطقة الوسطى والشرقية من كردفان . أما المجموعة الثالثة فتشتمل على الدويحية ـ والمسلمية ـ والبقارة ـ والحاميد ـ والماهرية ـ والـكبابيش ـ والمغاربة (الذين جاءوا من المغرب)ـ والحمر . وهم منتشرون فى كردفان ودارفور[٤٨] .

ومن الضرورى أن نشير هنا إلى أن هذا الانتشار الواسع ، لم يتم دفعة واحدة ، بل استغرق عدة قرون . وأن هذه الجماعات استقرت على شكل مجموعات متفرقة تحت سلطان ملوك علوة ، محافظة على نظامها القبلى[٤٩] . ثم اشتد ضغط أعراب جهينة ، على ملوك علوة الذين حاولوا دفعهم أو صدهم ـ على قول ابن خلدون ـ ولما لم يستطيعوا لهم دفعا استمالوهم إليهم بالمصاهرة . فانتقل الملك إلى أبناء جهينة من بنات ملوك علوة ، حسبما يقضى به نظام الوراثة المعروف عند النوبيين جميعا ، « فافترق ملـكهم حتى هذا العهد » : (أى القرن الخامس عشر الميلادى) .

والمعروف أن مملـكة علوة المسيحية تألفت من عدة ممالك صغيرة خاضعة للملك الـكبير فى سوبا . وهذه الممالك الصغيرة ، هى التى انتقل سلطانها ـ دون سلطان الملك الـكبير ـ إلى أبناء جهينة . ويذكر الدمشقى (١٢٥٦ـ١٣٢٧م) أن ملك علوة يسكن مدينة تسمى كدسة[٥٠] ، لامدينة سوبا العاصمة القديمة . وليس من المستبعد أن يكون ملك علوة ، اضطر أمام ضغط الجماعات العربية المختلفة ـ ومن بينها جهينة ـ إلى نقل مقر ملـكه ، فى القرن الرابع عشر الميلادى ، على الأقل ، إلى مدينة كدسة

(٤٨) محمد عوض محمد ـ نفس المصدر . ص ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥

(٤٩) Morie, L. G. : Histoire de l'Ethiopie, La Nubie, Tome 1ere, p. 413.

(٥٠) الدمشقى ـ كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٢٦٨

فى الغرب ، واتخذها عاصمة جديدة له وبهذا تكون سوبا فقدت مركزها القديم كعاصمة لمملكة علوة . فاضمحل شأنها وخربت دورها .

وعلى الرغم من انتقال العاصمة من سوبا إلى كدسة، واستيلاء القبائل العربية على معظم أقاليم علوة، فإن هذا لا يعنى سقوط تلك المملكة ، حتى القرن الخامس عشر الميلادى — على الأقل . ذلك بأن العرب لم ينشئوا حكومة مركزية تخضع لها سائر الأقاليم ، لأسباب واضحة ، منها : « عدم انقياد بعضهم إلى بعض ، فصاروا شيعا لهذا[٥١] العهد » .

والواضح تماما أن قبائل جهينة لم تكن الوحيدة التى أفادت من تداعى مملكة علوة وانحلالها . بل شاركتها القبائل العربية الأخرى ، التى استقرت فى جهات متعددة من مملكة علوة . وعلى هذا نشأت فى جوفها عدة إمارات عربية مستقلة . ويذكر القلقشندى أن من بين الإمارات التى نشأت فى أوطان البجة حتى الحدود الحبشية ، وبلاد النوبة كذلك ، ثمانى إمارات ، كان بين أمرائها والسلطنة المملوكية فى مصر مراسلات فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد)[٥٢]. غير أنه ليس من الواضح تماما إن كانت هذه الإمارات ، يقع بعضها فى إحدى جهات علوة ، أو قريبا منها .

وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادى ، على الأقل، ظهرت عدة ممالك ومشيخات إسلامية فى حوض النيل الأوسط[٥٣] ، وكان لظهورها أثر خطير فى تطور الحياة الاجتماعيـــة والسياسية كذلك ، مما ساعد على زوال بعض الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية فى علوة . ذلك أن اختلاط العرب المهاجرين بالسكان الوطنين ، ساعد على إزالة بعض التقاليد الاجتماعية القديمة ، ولاسيما بعد اختفاء معظم بيوت الإمارة القديمة . فنال الفرد حريته فى ظل التقاليد القبلية العربية،

---

(٥١) ابن خلدون — نفس المصدر ج ٥ ص ٤٢٩

(٥٢) القلقشندى — صبح الأعشى ج ٨ ص ٥ — ٦

(٥٣) نعوم شقير — تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته . ج ٢ ص ١٠٣—١٠٧

وأضحت الأرض ملكا للجماعة القبلية، بعد أن كانت ملكا خاصا للملك. وصارت الأرض توزع على الجماعة؛ يقومون على استغلالها ودفع الضريبة عنها لشيخ القبيلة أو زعيم الدار. ويعنى هذا الدور من التطور — الانتقال من مرحلة الإقطاع المطلق، إلى نظام يعطى للفرد نصيبا من جهوده.

وثم تطور آخر، طرأ على الحياة السياسية. وذلك أن الحكم أضحى وراثيا فى بيت شيخ القبيلة أو الدار. وتكونت من مجموعات القبائل — فى الإقليم الذى اتخذته دارا لها — زعامات إقليمية تولاها شيخ المشايخ. وهو عادة شيخ أقوى قبيلة فى المجموعة وعرف باسم الملك أو المانجل(٥٤). وبهذا اختفى نظام الوراثة القديم — أى نظام الأمومة.

ولعل أهم أثر لقيام هذه المشيخات الإسلامية فى حوض النيل الأوسط، هو ازدياد انتشار الإسلام بين كثير من أهل البلاد. وذلك أنه لما رأت القلة التى بقيت على النصرانية أن لا أمل لها فى قيام حركة للإصلاح فى مجتمعهم، بسبب انقطاع علاقاتهم الدينية بكنيستهم الكبرى فى الإسكندرية، كان من الطبيعى أن ينشدوا ما يسد رمقهم الروحى فى الدين الإسلامى، الذى دل بين أتباعه منهم على قوة وحيوية.

وعلى الرغم من تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية فى هذا الجزء من وادى النيل، فإن هذا لم يؤد إلى استقرار الأحوال فيه، بسبب اختلال الأمن، والنزاع بين القبائل العربية حول مواطن الرعى من ناحية، وبينها وبين الوطنيين من ناحية أخرى(٥٥) مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية. وزاد الأمور تعقيدا، تعطيل التجارة بين هذه البلاد وبين مصر، واختلال سير القوافل بينهما، بسبب اضطراب الأحوال فى منطقة النوبة الشمالية. ولهذه الأسباب ظهرت الحاجة إلى إنشاء حكومة مركزية تخضع لها شتى الجماعات والقبائل المتنازعة، لإقرار الأمن وحماية طرق التجارة القديمة، وتذكر

---

(٥٤) الشاطر بصيلى عبد الجليل — معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٥١

(٥٥) نعوم شقير — نفس المصدر ج ٢ ص ٧٢

المراجع الوطنية ، أن عماره دونقس زعيم الفونج ، جمع رجاله فى جبل مويا . ثم تحالف مع عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة وأصحابه الآخرين ، على إخضاع ملك الفنج وملك الغرب . ودارت فى أربجى ، معركة . سنة ٩١٠هـ (١٥٠٥م) ، انتصر فيها الحليفان ، وفر الفنج إلى جبال فازوغلى وكردفان ، ومن بقى منهم اختلط بالغزاة واعتنق الإسلام(٥٦) .

أما الفونج ، فاختلف المؤرخون حول أصلهم . ورأى البعض أنهم شعبة من الشلك ، مستندين فى هذا على ماذكره بروس الرحالة الإسكتلندى الذى زار سنار سنة ١٧٧٢م(٥٧) ، وقيل إنهم قوم أتوا من الغرب ، ويحتمل أن يكونوا فرعا من الأسرة المالكة فى مملكة برنو(٥٨) . وثم رأى ثالث يقول إنهم هجرة عربية دخلت السودان من الحبشة بطريق النيل الأزرق(٥٩) . أما الفونج أنفسهم ، فيقولون إنهم من ذرارى الأمويين ، الذين لجأوا إلى ملك الحبشة ، فرارا من بنى العباس(٦٠) .

وكيفما كان الطريق الذى سلكه الفونج إلى جزيرة النيل الأزرق ، أو درجة الصحة فى انتمائهم إلى العرب عامة ، أو بنى أمية خاصة ، فموضع الأهمية فى الواقع ، فى هذه المرحلة من تاريخ الفونج ، أن أولئك القوم — سواء هبطوا أرض الجزيرة من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب — عرضوا أنفسهم على قاعدة أنهم عرب ، ووافقهم الناس على نسبتهم هذه ، لاسيما وأنهم لم تكن لهم لغة سوى العربية ، أو يدنيون بدين سوى الإسلام .

وتدل شروط الحلف بين الحليفين ، عمارة وعبدالله ، أيكون عمارة هو المقدم على زميله

(٥٦) أحمد كاتب الشونة — تاريخ ملوك السودان . ص ٢

(٥٧) Arkell, A. J. : «Fung Origins» SNR, XV, II, pp. 208-243

(٥٨) Arkell, A. J. : A Hist. of the Sudan, p. 206.

(٥٩) Chatway. J. O. P. : «Notes on the Hist. of the Fung ». SNR. XIII, II, pp. 247-257.

(٦٠) Mac. Michael. H. A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan, II, B. A., pp. 36-37

فى الزعامة وحمل لقب ملك . وأن يحل عبد الله محله مدة غيابه . أى أنه كان بمثابة نائب ملك ، وحمل لقب شيخ . وظل هذا النظام ، الذى وضع أساسه الحليفان ، إلى أولادهما من بعدهما .

اتخذ عبد الله مدينه قرى (قرب خانق سبلوقة) مقرا له ، واختط عمارة مدينة سنار ، لتصبح عاصمة مملكة الفونج ، التى امتدت مساحتها من سواكن شرقا إلى النيل الأبيض غربا ، ومن أقصى جبال فازوغلى جنوبا ، إلى الشلال الثالث شمالا أى أنها اشتملت على معظم النوبة العليا (علوة) وقسم كبير من بلاد النوبة الشمالية (مقرة) . وأضحت مدينة أربجى (قرب المسلمية) الحد الفاصل بين نفوذ عبد الله ، الذى امتدت سلطته على جميع الوحدات القبلية حتى حنك (شمال دنقلة) على حين أن سلطة عمارة امتدت على مايلى هذه الأقاليم جنوبا . هذا ولم يباشر ملوك سنار ، أو حلفاؤهم فى قرى سلطاتهم على مملكة الفونج بصفة مباشرة . بل عن طريق المكوك (شيوخ القبائل) ، الذين تمتعوا بشىء من الاستقلال ، على أن يدفعوا الضرائب المقررة لخزانة الملك فى سنار . واحتفظ ملوك سنار وحلفاؤهم فى قرى ، بحق تنصيب الملك أو المانجل ، من بين أفراد أسرة الملك المتوفى(٦١) .

وفى أيام عمارة ، امتد النفوذ العثمانى إلى الشام ومصر . وقام العثمانيون بعملية تأمين الحدود الجنوبية ، على غرار مافعل جميع السابقين . غير أن الامتداد العثمانى ، اهتم بالناحية البحرية ، لأن استيلاء العثمانيين على مصر ، كان مختلطا فى عوامله ودوافعه بما لمصر من سيطرة على تجارة البحر الأحمر . وكانت تلك التجارة مهددة تمام التهديد من ناحية البرتغاليين . وهذا هو تفسير اهتمام العثمانيين بالناحية الجنوبية ، مما جعلهم يقيمون قواعد فى سواكن ومصوع سنة ١٥٢٠ م . وخشى عمارة من هذا الامتداد العثمانى من ناحية البحر . فبعث إلى الباب العالى ، يذكر له أن دولته إسلامية ، وأن رعيته عرب بادية ، لا يملكون ما يصلح لدفع الجزية للسلطان . وعزز عمارة

(61) Jackson, H. C. : Tooth of Fire. p. 90

هـذه الرسالة بكتاب يحوى أنساب قبائل العرب فى مملـكته . جمعه له السمرقندى ، أحد علماء سنار . ويقال إن السلطان العثمانى ، اقتنع بصحة ما تضمنته هذه الرسالة ، فعدل عن حرب سنار[٦٢] .

هكذا تم ميلاد هذه الدولة الإسلامية ، أوائل القرن السادس عشر الميلادى، على أنقاض مملـكة علوة المسيحية . غير أن المعروف أن هـذه الدولة اشتملت على عناصر مختلفة ، عربية وحامية وشبه زنجية ، فضلا عن خليط منها جميعا . وهى ذات ثقافات مختلفة ومختلطة كذلك . ويصف صاحب الطبقات حال هؤلاء وأولئك جميعا ، عقب تأسيس مملـكة الفونج بقوله : « اعلم أن الفونج ملـكت أرض النوبة ، وتغلبت عليها أول القرن العاشر ، سنة عشر بعد التسعمائة (١٥٠٥م) ، وخطت مدينة سنار ، ولم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن . يقال إن الرجل يطلق المرأة ، ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عدة »[٦٣]

تصور هذه الحالة، التى وصفها صاحب الطبقات، نوع الثقافة، التى سادت جهات حوض النيل الأوسط ، أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) وهى تدل دلالة واضحة، على اختلاط الإسلام بالعقائد والعادات الوطنية فشارك المهاجرون أهل البلاد الأصليين، فى الجهل بقواعد الإسلام. ومرجع هذا فى الغالب، إلى أن الدعوة الإسلامية لم تكن تهتم حتى هذا الوقت بشرح تفاصيل الأسس التى يقوم عليها الإسلام بل كانت هذه الدعوة مجملة مبسطة ، ليسهل على دعاتها ، نشر عقيدتهم بين أهل البلاد من ناحية ، وبسط نفوذهم عليهم من ناحية أخرى . هذا والمعروف أن معظم أولئك المهاجرين ، كانوا على حاله من البداوة ، فنسوا الـكثير من تعاليم الدين ، لبعد صلتهم بمواطن العلم والعلماء .

---

(٦٢) نعوم شقير ـ نفس المصدر . ج ٢ ص ٧٣ ـ ٧٤

(٦٣) محمد ضيف الله ـ طبقات ود ضيف الله ـ نشر إبراهيم صديق ص ٥

(٦٤) عبد المجيد عابدين ـ دراسات سودانية . ص ٣

غير أن بعض المصادر الوطنية تشير إلى وجود نوع من النشاط الثقافى ، فى بلاد النوبة ، قبل قيام السلطنة السنارية . ومن الأمثلة على هذا ، ما تذكره إحدى الوثائق أن غلام الله بن عايد اليمنى الأصل، هبط أرض دنقلة،أواخر القرن الرابع عشر الميلادى واستقر فيها ، لأنها كانت فى غاية الضلالة والحيرة ، لافتقارها إلى العلم والعلماء . فعمر غــلام الله المساجد ، وعلم أبناءه وتلاميذه من أبناء المسلمين تلاوة القرآن ، وعلمهم كذلك بعض العلوم الأخرى(٦٥) . ثم ظهر فى نواحى أبى حليمة على النيل الأزرق ــ قبل قيام السلطنة السنارية ــ أولاد عون السبعة، وتولى أحدهم ويدعى الضرير،منصب القضاء فى زمن الفنج. وليس من المستبعد أن يكون من أحفاد غلام الله من انتقل من دنقلة إلى جهات النيل الأزرق ، أواسط القرن الخامس عشر ، حيث أنشأوا المساجد للعبادة والتدريس .

وإذا استثنينا بعض الحالات التى استخدم فيها العنف لنشر الإسلام بين الجماعات الوثنية ، والقضاء على العادات القديمة ، فإن أساليب الدعوة الإسلامية زمن الفونج ، كانت سلمية خالصة(٦٦).وتميزت هذهالمرحلة من تاريخ الدعوة،بظهور طبقة من الفقهاء ورجال الصوفية الذين تعهدوها بأساليب جديدة،قامت أساساعلى شرح تفاصيل الدعوة ومبادئها للناس، ونهيهم عما يتعارض من عاداتهم ومعتقداتهم مع الإسلام . والواضح مما ذكرتهبعض المراجع السودانية المختلفة أنهذهالحركة العلمية مصدرها مصر،والحجاز وبلاد المغرب والعراق وغيرها.ويرجع هذا فى الغالب، إلى هجرة أفراد أوأسرات مثقفة من هذه الدول الإسلامية،إلى جهات وادى النيل الأوسط، لينزلوا فى كنف ملوكها رغبة فى عطائهم وإكرامهم ، أو ليعيشوا فى خيراتها وأراضيها الواسعة ، أو لينشروا دين الله والعلم والتصوف ، أو ليتخذوه مأوى جديدا بعد أن ضاقت بهم أوطانهم(٦٧)

---

(٦٥) Mac. Michael, H. A. : op. cit., II, manusc. B.A. p. 36

(٦٦) Jackson, H. C. : op. cit. p. 21.

(٦٧) عبد العزيز عبد المجيد ــ التربية في السودان ج ١ ص ٥٥

وفضلا عن هؤلاء فإن كثيرا من أبناء مملكة سنار، كانوا يرحلون إلى مصر لتلقى العلم بالأزهر، ثم يعودون إلى بلادهم. ومنهم من كان يحج إلى بيت الله الحرام ويأخذ العلم عن أحد فقهائها، أو يأخذ الطريقة عن أحد مشايخ الطرق فى الحجاز. وهؤلاء وأولئك جميعا كان لهم أثر واضح فى نشر الثقافة الإسلامية فى مملكة سنار .

ومن الأمثلة الدالة على هذا ، ماتذكره المراجع بصدد هجرة السناريين إلى مصر لتلقى العلم أوائل القرن السادس عشر الميلادى . ومن بين هؤلاء محمود العركى ، الذى أخذ العلم عن ناصر الدين اللقانى وأخيه شمس الدين. ثم عاد إلى وطنه فأسس سبع عشرة مدرسة ، ما بين أليس (الكدة) والحسانية (توتى) . ويعد محمود العركى أول من طبق أحكام الدين الإسلامى فى هذه المنطقة بتفقيه الناس وأمرهم بالعده[٦٨] .

وامتاز النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) بازدهار الثقافة الإسلامية فى مملكة سنار . إذ أن عدداً من السناريين ارتحلوا إلى مصر لطلب العلم بالأزهر . ومن بين هؤلاء أولاد جابر الأربعة . فأكبرهم إبراهيم المعروف بالبولاد ، تفقّه على الشيخ محمد البنوفرى إمام المالكية فى مصر ، وأخذ عنه الفقه والأصول والنحو ، ثم عاد إلى ترنج مسقط رأسه فى أرض الشايقية . وكان أول من درس مختصر خليل فى مملكة الفونج . « وتخرّج على يديه أربعون إنسانا صاروا كلهم أولياء وأقطابا » . ومن إخوة إبراهيم ، عبد الرحمن الذى نهج نهجه ورحل إلى الأزهر وتتلمذ على الشيخ البنوفرى . ومنهم من تردد على مصر من وقت إلى آخر، للاتصال بعلمائها كما فعل الأخ الثالث إسماعيل ، الذى أجازه الشيخ البنوفرى كذلك . وغدت بلاد الشايقية ، مقصد الطلاب من أنحاء مختلفة فى مملكة الفونج فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى[٦٩] .

وحوالى سنة ٩٥٠ هـ (١٥٤٣ م) قدم من مصر الشيخ محمد القناوى المصرى

(٦٨) طبقات ود ضيف الله . ص ٥ ، ١٦٣

(٦٩) طبقات ود ضيف الله ص ٦

الأزهرى الثقافة ، تلميذ الشيخين سالم السنهورى ، ويوسف بن عبد الباقى الزرقانى . ودخل بربر وأربجى وسنار ، غير أنه فضل سكنى بربر ، وبنى بها مسجداً لتدريس الرسالة والعقائد والنحو وسائر العلوم ، وولى القضاء فباشره بعفة ونزاهة . وتخرّج على يديه عدد من أبناء بربر وغيرهم ، منهم حفيده الشيخ الضوى المصرى ، والشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب من أهل دنقلة[٧٠] .

ومن العلماء المصريين ، الذين قدموا إلى مملكة سنار فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى كذلك ، الشيخ محمد بن على بن قرم الكيمانى المصرى . وهو شافعى المذهب ، وتلميذ الخطيب الشربينى . فأقام فى بربر ودرس المذهب الشافعى فى بربر وأربجى . ومن تلاميذه ابنة الشيخ الشكاك والقاضى دُشين قاضى أربجى ، فى عهد الشيخ عجيب المانجلك وغيرهم كثير[٧١] .

ثم وفدمن الحجاز أحدأئمة الصوفية ، ويدعى تاج الدين البهارى البغدادى ، وهو خليفة الطريقة القادرية الجيلانية . واستقر تاج الدين فى أرض الجزيرة سبع سنين تمكن فيها من إدخال الطريقة الجيلانية ، بعد تسليك خمسة من المريدين ، منهم الشيخ محمد الهميم . ثم تولى هؤلاء تسليك غيرهم ، بعد عودة شيخهم إلى الحجاز[٧٢] .

وفى هذا الوقت أيضا (أى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى) قدم التلمسانى المغربى ، على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب وسلكه طريق القوم ، وعلمه علم الكلام ، وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها . وانتشر علم التجويد والتوحيد فى مملكة سنار . وممن أخذ عنه عبد الله الأغبش من بربر[٧٣] .

وتمتع أولئك المشايخ بنفوذ واسع فى مملكة سنار. فأقطعوا الإقطاعات الواسعة،

(٧٠) المصدر السابق ص ١٦٥

(٧١) المصدر السابق ص ١٦٩

(٧٢) المصدر السابق ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٣٥

(٧٣) المصدر السابق ص ٥

ولم يرد لهم طلب عند الحكام والملوك ، ومن استجار بهم فهو آمن غضب السلطان ، مما شجع أولئك المشايخ على الإقامة ونشر الدين والثقافة الإسلامية فى هذه البلاد .

والواضح من دراسة حياة أولئك الرواد ، أن مصر هى المصدر الأساسى للثقافة الإسلامية ، التى ظهرت فى مملكة سنار فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) . ومن الملحوظ هنا أن الأثر المصرى يتميز عن غيره بأنه ذو طابع علمى فى معظمه . فإن أولئك الذين أخذوا عن علماء الأزهر « بالمباشرة أو الواسطة » ، اتجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد وغيرهما من العلوم . على حين أن الطابع الصوفى ، أو الصوفى العلمى معا كان غالبا على تعليم الثقافة الحجازية والمغربية والعراقية(٧٤) .

ومن الملحوظ هنا كذلك ، أن الطابع العلمى الذى تأثر به السناريون ، اتجه إلى حصر الانتباه فى العلوم النقلية ، التى سادت العالم الإسلامى منذ القرن العاشر الهجرى ، بعد أن تغيرت أساليب التربية الإسلامية على يد الأتراك وغيرهم ، وانصراف العلماء إلى التأليف والتحرير ، لا إلى الاجتهاد والتخريج ، وميل معظم علماء هذا العصر إلى اختصار ينقصه الشرح والتعليق(٧٥) .

أما عن المذاهب الدينية ، فالسناريون غلب عليهم مذهب مالك ، بسبب اتصالهم بأهل صعيد مصر ، الذين غلب عليهم هذا المذهب . وأما الدراسة العلمية لهذا المذهب ، فقد ظلت مزدهرة بالأزهر إلى جانب المذاهب الأخرى . وانتقلت دراستها إلى مملكة سنار على يد خريجى الأزهر سناريين ومصريين ، مثل الشيخ إبراهيم البولاد والشيخ محمد القناوى المصرى وغيرهما .

وعلى الرغم من أن انتشار المذهب الشافعى كان محدوداً ، إلا أن القليل من علماء الشافعية الذين تخرجوا فى الأزهر وتلاميذهم كان لهم أثر واضح فى نشر تعاليم الإسلام .

---

(٧٤) عبد المجيد عابدين ـ تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٥٦ ـ ٥٧

(٧٥) عبد العزيز عبد المجيد ـ التربية فى السودان . ج ١ ص ٥٢

ومن هؤلاء محمد بن قرم الكيماني المصري ، وتلاميذه عبد الله العركى والقاضى دشين الشافعي قاضي أربجى وعبد الرحمن ولد حمدتو والشيخ إبراهيم الفرضي وغيرهم (٧٦) .

وانتشرت علوم القرآن فى مملكة سنار ، أواخر القرن العاشر الهجرى . ويقال إن الشيخ محمد سوار الذهب من دنقلة ، تلقى علوم القرآن على التلمسانى المغربى ، كما تلقّاها من قبل، على الشيخ محمد القناوى المصرى فى بربر . وليس من المعروف تماما أيهما كان أقوى أثراً . غير أن انتشار قراءة ورش فى دنقلة ، وأبى عمرو فى معظم جهات مملكة سنار — وهما القراءتان الشائعتان فى بلاد المغرب — يدل على تأثر السناريين ببلاد المغرب فى علوم القرآن أكثر من تأثرهم بمصر .

وإلى جانب الثقافة العلمية ، ظهرت فى مملكة سنار ، منذ القرن العاشر الهجرى، بوادر ثقافة صوفية كذلك ، وهى الثقافة التى كانت شائعة ؛ ذلك الحين ، فى بلاد العالم الإسلامى مثل الحجاز والعراق ومصر وبلاد المغرب . ومنها تسربت إلى مملكة سنار على يد بعض الدعاة أو المواطنين الذين اتصلوا بمنابعها . وللسناريين صلات غير منقطعة بالحجاز ، ولاسيما فى موسم الحج، لطلب العلم على علماء الحرمين . ثم إن بعض قادة الصوفية فى الحجاز وبلاد المغرب قدموا إلى مملكة سنار ، حيث طاب لهم فيها المقام ، لترحيب السناريين بهم وتشجيع ملوك الفونج لهم . ولقيت الطرق الصوفية فى مملكة سنار منبتا خصبا ، ويرجع هذا فى الغالب ، إلى أن كثيراً من المشايخ أظهروا من الصفات ، ما جعل الناس يتهافتون عليهم ويتخذونهم ملاذا فى ساعات الضيق والعسرة . كما أن الحروب والانقسامات الداخلية — التى سبقت عصر الفونج — أورثت فى نفوس السناريين فى هذا العهد ، رغبة شديدة فى حياة مستقرة ، مما دعاهم إلى الاستجابة لدعوة أولئك المشايخ ، الذين ظهروا مع قيام مملكة الفونج للانتظام فى سلك العبادة .

---

(٧٦) طبقات ود ضيف الله ، ص ١٦٩

ويقال إن الطريقة الشاذلية ، دخلت السودان قبل قيام مملكة الفونج ، على يد الشريف حمد أبى دنانة سنة ١٤٤٥ م . ثم رسخت دعائمها زمن الفونج ، على يد الشيخ خوجلى عبدالرحمن المتوفى سنة ١٧٤٣م ، والذى كان أول أمره قادريا ثم تحوّل شاذليا(٧٧) .

ويظهر أن هاتين الطريقتين، عند ما دخلتا بلاد سنار ، لم يكن لهما هيئة مركزية منظمة ، تضم الشيخ الأكبر وخلفاءه ومريديه ، بل كانت الطريقة تسلك على يد شيوخ كثيرين منتشرين فى أنحاء البلاد ، مستقلين عن بعضهم ، إلا من حيث الرباط الروحى ، الذى يربطهم جميعاً باعتبارهم من أتباع طريقة واحدة . ولم يدخل التنظيم على هذه الطرق إلا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ومن الملاحظ هنا ، أن بعض الفقهاء السناريين ، أصبحوا شيوخا صوفية ، ومن هؤلاء الشيخ عبد الله العركى . على أن أغلب رجال الصوفية ـ فى هذا العهد ـ (القرن العاشر الهجرى) كان من غير العلماء . ومن هؤلاء خليل بن على الصاروى ، الذى كان فى أول أمره خمارا شرابا(٧٨) .ومنهم الشيخ محمد الهميم، الذى كان من أكبر قادة الصوفية فى مملكة سنار ، « مع كونه أميا لم يقرأ إلا لغاية الزلزلة »(٧٩) . وقد يكون بعض السبب فى هذا راجعا إلى أن الناس فى هذا الوقت (القرن العاشر الهجرى) ، كانوا لا يزالون فى مستوى ثقافى لم يتوافر فيه التعرف على حقيقة التعاليم الإسلامية ، وتدبر أصول الدين ، مما جعلهم لا يميزون بين ما هو من أصل الدين وما هو بدعة ، فيسهل التأثير فيهم ، ويتملكهم كل شىء طريف غير مألوف ، كالتحدث بالغيب والكرامات ، وادعاء الطب الروحانى ، ولا سيما إذا جاء هذا عن طريق الدين .

وكيفما كان الأمر ، فإن أثر الطرق الصوفية يبدو واضحا فى التقريب بين الجماعات

---

(٧٧) Trimingham, J. S. op. cit. pp. 196-197

(٧٨) طبقات ود ضيف الله،ص ٨٤

(٧٩) المصدر السابق ص ١٥٠

الجنسية ، لأنها تعمل على إضعاف العصبية القبلية ، وإيجاد نوع من التعاون بين الجماعات المختلفة[٨٠] . من ذلك أن التجمع الصوفى كان نواته شيخ الطريقة ، يجتمع إليه الناس ويصبحون تحت لواء الشيخ طريقة واحـدة ، تجمع الدعوة شملهم على اختلاف قبائلهم وسلالاتهم .

وهكذا يمكن القول ، إن القرن السادس عشر الميلادى ، كان عهد انتقال من المسيحية المتهدمة ، إلى الإسلام البدوى، على أيدى جماعة من العلماء الذين وفدوا من البلاد المجاورة ، أو من الوطنيين الذين أخذوا العلم عن أولئك العلماء الوافدين ، وإلى هؤلاء وأولئك جميعاً يرجع الفضـل فى وضع الأسس التى قامت عليها النهضة العلمية والصوفية ، التى ازدهرت فى مملـكة سنار منذ القرن السابع عشر الميلادى .

مصطفى محمد مسعد

(٨٠) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ص ١٧ـ١٨